صورة الصليبيين بالشام في ضوء مذكرات أسامة بن منقذ

الطالب/ محمد ناصري
جامعة سيدي بلعباس – الجزائر
mohammedunivsba@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019-12-19   تاريخ القبول: 2019-12-19   تاريخ النشر: 2019-12-26

Abstract :

The notes of Usama ibn Munqed are considered one of the most important sources that shed light on some references about the Crusaders and what he noticed about them as a result of his contact with them, which are observations in the eyes of a Muslim knight, in which we see significant interest in the military aspects, and everything related to the Crusader knight, his courage and intensity of his warfare, in contrast did not He neglects some aspects related to the Crusader community and their mindsets, based on that we will try to present these notes to see how Osama bin Munqeth saw the Crusaders, and whether it was objective in presenting them.

ملخص

تعتبر مذكرات أسامة بن منقذ من أهم المصادر التي سلطت الضوء على بعض الإشارات حول الصليبيين وما لاحظه عنهم نتيجة احتكاكه بهم، وهي ملاحظات بعيون فارس مسلم، نرى فيها اهتماما معتبرا بالجوانب العسكرية، وكل ما يتعلق بالفارس الصليبي وشجاعته وشدة بأسه في القتال، في المقابل لم يهمل بعض الجوانب المتعلقة بالمجتمع الصليبي وذهنياتهم، بناء على ذلك سنحاول تقديم هذه الملاحظات لنرى كيف رأى أسامة بن منقذ الصليبيين، وهل كان موضوعيا في تقديمها.

الكلمات المفتاحية: أسامة بن منقذ–الشام–الصليبيين–الفارس–شيزر.

مقدمة

اجتاح الصليبييون بلاد الشام وآسيا الصغرى في إطار الحملات الصليبية التي انطلقت سنة 1095م فكانوا لعنة أصابت المسلمين الذين عانوا من همجيتهموبدائيتهم، بحكم أنهم قدموا من مناطق سادها آنذاك ظلام وغياب شبه تام للتحضر، وما قاموا به من مذابح في بيت المقدس وأنطاكية وغيرها من المناطق خير دليل على ما نقول، فشهدت بلاد الشام بعد ذلك حوار حضاري قوامه السيف، من خلال الصراع العسكري وحركات الجهاد التي انطلقت مع العديد من القادة المسلمين كمودود بن التونتكين وعماد الدين زنكي.

والجدير بالذكر أن الحملات الصليبية خصوصا الأولى منها انطلقت معظمها من فرنسا، بل حتى المجمع الكنسي للدعوة إلى الحملة عقد بمدينة كليرمونت الفرنسية، نستحضر هذا الاعتبار للإشارة إلى المميزات التي يتصف بها الاستعمار الفرنسي، ونخص بالذكر الطابع الاستيطاني، فالحملات الصليبية التي انطلقت لم يكن هدفها الانتصار في معارك وتحصيل غنائم والعودة إلى أوروبا فحسب، بل بالاستقرار في بلاد الشام، وبالتالي فالحشود لم تتشكل من جنود فحسب، بل كانت كتل بشرية ضمت زيادة على المقاتلين كل شرائح المجتمع من رجال ونساء وأطفال ورجال الدين، حتى وصفتهم ابنة الإمبراطور البيزنطي ألكسيسكومنين " يخيل إلي أن أوروبا اقتلعت من أصولها"[1].

هؤلاء الذين أسالت لعابهم خيرات الشام، وقصص وأساطير الكنوز، حيث لم تكن تراجيديا اضطهاد الحجاج المسيحيين لبيت المقدس من طرف المسلمين والتباكي على بيت المقدس سوى حجة دينية لتأجيج العواطف، وعلى هذا المنطق عرفت بلاد الشام تحولات ديمغرافية وعرقية ودينية، فكان الأنا والآخر في سجال دائم قوامه التأثير والتأثر.

في هذا السياق تأتي مذكرات أسامة بن منقذ لتلقي الضوء على بعض الإشارات حول الصليبيين وما لاحظه عنهم نتيجة احتكاكه بهم، وهي ملاحظات بعيون فارس مسلم، نرى فيها اهتماما معتبرا بالجوانب العسكرية، وكل ما يتعلق بالفارس الصليبي وشجاعته وشدة بأسه في القتال، في المقابل لم يهمل بعض الجوانب المتعلقة بالمجتمع الصليبي وذهنياتهم، بناء على ذلك سنحاول تقديم هذه الملاحظات لنرى كيف رأى أسامة بن منقذ الصليبيين، وهل كان موضوعيا في تقديمها:

الجوانب العسكرية:

تمتع الفارس بمكانة مرموقة في المجتمع الصليبي، مرد ذلك إلى ذهنية الفرسان الإقطاعيين الذين كانت لهم السيطرة في أوروبا خلال العصور الوسطى، وكانوا قوام الجيش الصليبي المشارك في الحملة التي سميت باسمهم بعد حملة الرعاع الفاشلة[2]، فكانوا هم الآمر الناهي بفضل قدراتهم القتالية وسيطرتهم على الكثير من الإقطاعيات ببلاد الشام، وقد اعترف أسامة بذلك بوصفه للصليبيين ومعاييرهم في منح المكانة العالية للأشخاص بقوله: "ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان"[3].

توصل إلى هذه الملاحظة بعدما دخل على ملك بيت المقدس فولك الأنجوي[4] يحتج له على سرقة رينيه صاحب بانياس[5] لقطيع من الغنم بمنطقة الشعراء، وكانت فترة هدنة وسلم بين إمارة شيزر والصليبيين، وقد ظن أن فولك هو من سيقرر بخصوص هذه القضية، فإذا به يأمر مجموعة من الفرسان كانوا بالمجلس، وخول لهم التشاور بحكم للقضية، وبعد تداول الحديث بينهم خارج المجلس عادوا ونطقوا بحكم تعويض صاحب بانياس لقطيع الغنم.

واصلابن منقذ حديثه عنهم بأن الأحكام التي يصدرها الفرسان غير قابلة للنقض حتى من قبل ملك بيت المقدس، فيبدو أنه أعجب كثيرا بهذه المكانة التي يتمتعون بها، و لم يخف حتى سعادة الملك فولك الذي عبر له عن فرحه بعدما علم أن أسامة بن منقذ فارس، ليرد عليه بفخر واعتزاز أنه فارس من جنسه العربي وقومه لا لأي جهة أخرى[6]، وكأنه أبطن نقدا لاذعا للفرسان المرتزقة الذين يقدمون خدماتهم لمن يمنح لهم أكثر، كما رصد عنهم إعجابهم واهتمامهم المعتبر بالمواصفات الجسمية للفارس، حيث يحظى من يتمتع بالنحافة والطول بقبول أكثر[7].

إعجابه بشخصية الفارس الصليبي جعلته لايكتفي بمميزاتهم النفسية فقط،بل راقب باهتمام كبير أداءهم القتالي في مختلف المعارك التي شارك فيها ضدهم، فهل كان ذلك إعجاب العدو بعدوه؟ أم إعطاء وزن وقيمة أكبر للجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ووضعهم في صورة المقاتلين الأشداء، لتصبح بذلك كل غارة أو معركة ناجحة ضدهم ذات قيمة معتبرة؟

أيًا كان الأمر، فإن الفارس في تقييمه لمقاتل من طينته تكتسي قيمة ذات أهمية بحكم أنه تقييم متخصص، ويمكن القول أن رؤيته لهم تمت في عدة ملاحظات من منظور بطولي، فقد ذكر أنه سنة 505ه/1111م خرج حاكم الموصل[8] السلجوقي مودود بن التونتكين[9] بأراضي إمارة بني منقذ بشيزر لمواجهة تانكرد[10] أمير أنطاكية، وفي غمرة القتال شاهد فارسا صليبياتوسط جنود مودود واستمات في القتال حتى قتل حصانه وواصل القتال راجلا وأصيببعدة جروح في وجهه وجسده ثم عاد إلى معسكره.

مرت على هذه الواقعة بضعة أشهر ليصل إليهم فارس حسن اللباس عليه آثار جراح كثيرة، وكان قد قدم من أوروبا للحج، ويبدو أن احتكاكه في بعض المعارك ضد المسلمين قد خلقت في نفسه رغبة ليطلع ويتعرف عليهم أكثر، وكان هذا الطلب فحوى الرسالة التي أرسلها رفقته إلى حاكم إمارة شيزر، وكانت الضربة التي على وجهه قد أثارت استعجاب أسامة بن منقذ، فراح يسأل عنه ليجد أنه نفس الفارس الذي توسط جنود مودود وقاتلهم، ليعلق على الأمر بدهشة تنبع من كلماته "فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء، لا يؤخر الأجل الإحجام ولا يقدمه الإقدام"[11].

ميّز أسامة بن منقذ في ملاحظاته ذات الطابع العسكري عدة معايير يتميز بها الفارس القوي في ميدان القتال، وهو ميدان الطعن وحصد الرؤوس والرماح والسهام المتناثرة في الهواء، فقد ذكر عن مقتل رسول الخليفة العباسي الراشد[12] في معركة قنسرين[13] سنة 530ه/1136م، بعدما طعنه فارس صليبي برمح في صدره وخرج من ظهره من شدة قوة الطعنة، رغم أنه كان يرتدي الدرع المسمى بالجوشن[14] إلا أنه لم يجدي نفعا[15]، ووصف بدقة طعنة أخرى وصفها بالعظيمة تعرض لها جندي من جنود إمارة شيزر يدعى سابه بن قنيب كلابي، الذي تلقى طعنة قوية من جندي صليبي مزقت له ثلاثة أضلاع من الجانب الأيمن والأيسر، وتجاوزت الضربة إلى مرفقه فقطعته ليسقط صريعا، ويصف دقة هذه الطعنة الأخيرة أنها" كما يفصل الجزار المفصل"[16].

إضافة لما سبق، لم يُخف أسامة في كل حادثة يرويها عنهم اعترافه بشجاعتهم وإقدامهم، ويفسر أحد الباحثين خلفية ذلك إلى طبيعة الفارس الاجتماعية، إضافة إلى تدينه العاطفي الذي تميز به، باعتباره حامي الصليب وأنه يؤدي رسالة دينية، وذلك دون إهمال الجو

العدائي ببلاد الشام بينهم وبين المسلمين، مما يستلزم منه إبداء شراسة وشجاعة[17].من ذلك ما ذكره عن فارس من فرسان أفامية[18] يدعى بدرهو، الذي كان يمني النفس بأن يلاقي في إحدى المواجهات الفارس المسلم جمعة النميري، ونفس الرغبة كانت تراود هذا الأخير لشدة اعتداد كل واحد منهما بقوته وإصراره على هزيمة الثاني وقتله، وكان في إحدى المواجهات أن نصب الجيشين الأنطاكي وجيش شيزر معسكرهما مقابلين، بحيث يرى كل منهما الآخر لا يفصل بينهما سوى نهر العاصي[19]، وكانت سرية من الجيش الإسلامي على ربوة قريبة من النهر، فخرج الفارس بدرهو وصاح إذا كان جمعة من بينهم ليدعوه إلى مبارزة، لكنه لم يكن هناك، إلا أنه وجد أربعة فرسان[20] قريبين منه فقاتلهم لوحده وتمكن من هزيمتهم واضطرهم إلى الانسحاب، وطعن أحدهم طعنة سلم منها، كانت هذه الوقعة شديدة عليهم بعد عودتهم " فافتضحوا، واستخفهم الناس ولاموهم، وأزروا بهم. قالوا: أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد"[21].

ثم إنّ شجاعة وقوة الفارس الصليبي بنظر أسامة لم تكن كافية، ولا يحظى الفارس بهذا اللقب إذا لم يجمع معها الفطنة والذكاء، أو استحضار العقل في القتال كما أورد في إحدى ذكرياته، فمن أمثلة ما ذكره عنهم أن تانكرد حاكم أنطاكية أغار على منطقة شيزر ونهب كميات معتبرة من المواشي والأمتعة، فضلا عن سبي العديد من نساء المسلمين، وواصل طريقه ليفعل الأفاعيل بقرية زلين التي فر أهلها إلى مغارات بوسط جبال ذات مناعة وحصانة، بحيث لا يصل إليها إلا بواسطة الحبال، فاستعصت على الجيش الصليبي، فجاء أحد الفرسان بحيلة تنم عن مكر ومجازفة كبيرة، إلا أنها كانت ناجحة، فقد طلب منه أن يضعه في صندوق خشبي ويربط بسلاسل حديدية حتى لا تقطعها السيوف ويترلونه وسط المغارة، علما أن هذه المغارات

كانت جد ضيقة، وهو ما أتاح له أن يرميهم بالنبال، فكانت كل رمية تصيب أحدهم لضيق المكان، وهي حيلة أثارت دهشته وإعجابه لدرجة أنه وصف الفارس بالشيطان[22].

وفي حادثة أخرى أبانت عن دهاء الصليبيين واستخدامهم للحيل في الحروب للإيقاع بالمسلمين، ومن ذلك أن فارسين من إمارة أنطاكية جاءا إلى باب إمارة شيزر واقتربوا من الحراس مدعين عدم معرفتهم باسم المنطقة، فتمكنا من طعن أحد الحراس من فتحة الباب عقب اقترابه منهما خلف الباب ليتواصل معهما، ورجعا على طريقهما متأنيين غير مسرعين، على أنهما قاما بهذه الخطوة لاستدراج جنود شيزر إلى تل الملح أين نصبوا معسكرهم، ويصور لنا ابن منقذ نوعا من المقابلة بين دهاء الصليبيين وفطنة المسلمين متمثلة في عمه الذي أوقف أسامة بعدما أبدى تحمسا لملاحقة الجنود، وعرف أنه مكيدة منهم، فمن في الشام لا يعرف شيزر على حد السؤال التهكمي الذي طرحه، وفعلا كان ما توقعه، فقد أرسل جنديين لاستكشاف تل الملح ووجدا فيها جنود إمارة أنطاكية تنتظر وصول جنود شيزر لينقضوا عليهم[23].

كذلك فإنّ دقة استقراء أسامة بن منقذ للفرسان الصليبيين لم تكتفي بمراعاته عاملي الشجاعة والدهاء فقط، فالإقدام في القتال قد تكون له ضريبة مرتفعة تودي بحياة الفارس، ولهذا -حسب رؤيته- فإن الاحتراز لا ينقص من قيمة الفارس وشجاعته، وهو ما لاحظه في الفرسان الصليبيين بوصفه لهم "وهم لعنهم الله أكثر الناس احترازا في الحرب"[24]،وكانت ملاحظة عن تجربته معهم واحتكاكه بهم، فقد خرج رفقه أخيه عز الدولة أبو الحسن علي للإغارة على بيت جبريل[25]، وفي طريق عودتهم اجتمع عليهم الصليبيين من عدة حصون قرب عسقلان[26]، وصعدوا على رابية ومكثوا فيها رغم أن أعدادهم كانت أكثر من المسلمين، وكان هذا الاحتراز سببا في نجاة سرية شيزر " وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم"[27].

من صنوف الاحتراز التي رصدها ابن منقذ في الفرسان الصليبيين، تحصنهم بالدروع لوقاية أجسادهم من الطعنات، فقد روى عن بداياته الأولى في مشاركته في الجهاد وهو في ريعان شبابه، عن معركة جرت وقائعها في أفامية سنة 513ه/1120م،فقد أرسله والده في سرية لنهب زرعها، وجرت مواجهات بينهم وبين الفرسان الصليبيين، فبعد أن تمكن من طعن فارس في صدره ليرديه قتيلا، تقدم إلى فارس آخر على حصان أدهم، ولم يُخف أسامة خوفه منه في البداية، وصرح بذلك بكل موضوعية "أنا خائف منه لا يكون جاذبا لي ليعود علي"[28]، إلا أن خبرته الجيدة بالأحصنة خولت له معرفة نقطة ضعفه المتمثلة في إرهاق الحصان الذي كان يركبه، فقد لاحظ أن الفارس لما ضربه بالمهماز لوح بذنبه، ويبدو أنها إشارة تدل على تعبه، وهو ما استغله ليتقدم نحوه وطعنه برمحه وظن أنه قتله[29]، وبعد أيام استدعاه عمه عز الدين أبو العساكر فوجد عنده رسول من أفامية يريد معرفة من طعن الفارس فيليب تلك الطعنة القوية " فإن الإفرنج تعجبوا من تلك الطعنة، وأنها خرقت الزردية من طاقتين وسلم الفارس"[30]، فتعجب أسامة عن كيفية سلامته من تلك الطعنة القاتلة، ليدرك بعدها أن الدرع وقاه من الموت،فعلق عليها بتعجب "قلت: نعم، الأجل حصن حصين، وما ظننته يسلم من تلك الطعنة"[31].

حِرص الصليبيين في الجانب القتالي وتحليهم بالشجاعة والدهاء والاحتراز في المعارك بالتخطيط المحكم والدروع، صاحبه حِرص من نوع آخر متعلق بسمعة الفارس وسعيه الدائمللانتصار في المواجهات العسكرية مع المسلمين، والويل للفرسان إذا هزمتهم فئة مسلمة قليلة العدد، مثلما كان الحال مع الفارس جمعة النميري، فقد قام فارسين من فرسان أنطاكية بأسر رجل مسلم على الطريق، فقام جمعة بتخليصه منهما وهزم الفارسين، فما كان من

بوهيموند الثاني أمير أنطاكية لما وصله ما وقع لهما إلا أن نزع ترسيهما وجعلهما معالف للدواب إهانة لهما على تخاذلهما أمام فارس مسلم، ونقل ابن منقذ على لسانه توبيخه لهما " فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج! ما أنتم رجال، أنتم نساء!"[32].

الجانب الاجتماعي والذهني:

تنوعت ملاحظات أسامة بن منقذ للصليبيين، فرغم أنه كفارس مسلم ركز بكثرة على مميزات الفارس الصليبي، إلا أنه لم يهمل الجانب الاجتماعي المتعلق بالمجتمع الصليبي في بلاد المشرق، فدون ما شد انتباهه من باب المقارنة والتعجب، وسنرى العديد من العادات التي ميزتهم رآها أسامة بمثابة همجية وتخلف حضاري، فقد كانوا متخلفين جدا في الجانب الحضاري عن المسلمين:

حيث ذكر في مواضع عدة من كتابه اتصاف الصليبيين بعدم احترام العهود ونكثها متى ما سنحت لهم الفرصة في ذلك، وقد عانى أسامة بن منقذ شخصيا من هذه الذهنية التي جُبلوا عليها، حيث كان أهله بمصر وأراد استقدامهم إلى الشام بحكم أنه دخل تحت خدمة نور الدين زنكي الذي أخذ له الأمان من الصليبيين، إلا أنه في أثناء قدوم أهله بحرا إلى الشام، مروا بعكا[33] فأمر الأمير الصليبي جنوده وحطموا المركب بالفؤوس، ورغم إظهارهم عهد الأمان إلا أنه تحجج بحجج واهية وقام بإنزالهم في دار ونهب كل ما كان معهم من حلي وسيوف وذهب وفضة ما قيمته ثلاثين ألف دينار[34]، ولم يترك لهم سوى خمسمئة دينار ليصلوا بها إلى دمشق[35]، إلا أن أسامة تمكن من تسلية نفسه عن ضياع المال بقدوم أهله سالمين، لكن نهب كتبه قد فت في عضده، و هذا ما عبر عنه بقوله: " إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف

ISSN 2437-0797
Dépôt Légale 6799-2015

مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت"[36]، وذكر حادثة أخرى تبين استهتار أمير أنطاكية تانكرد بالعهود، فقد طلب من والد أسامة بن منقذ حصانا ليسابق به، فكان له ما طلب وأرسله مع فارس كردي يدعى حسنون، وفاز به في السباق، فأعجب به تانكرد، وقد طلب منه حسنون أن يطلق سراحه إذا ما تم أسره في معارك مستقبلية تنشب بينهم، " فأعطاه أمانه على ما توهم حسنون، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ما ندري ما يقولون"[37] إلا أنهم أسروه في إحدى المعارك وأذاقوه أليم العذاب واقتلعوا عينه اليسرى وافتدي بألف دينار وفرس[38].

يبدوا أن هذه الصفة الذميمة قد تميزت بها الطبقة السياسية فقط، و ذلك أنّ عامة المجتمع الصليبي قد كانوا بعكسهم، ويستدل أسامة بن منقذ بذلك بما وقع له، فقد أرسل مملوكا له في مهمة إلى دمشق، إلا أن الطريق إليها انسد بسبب سيطرة عماد الدين زنكي على حلب[39]، فسار المملوك إلى بعلبك ومنها إلى طرابلس[40]، حيث اكترى بها بغلا من رجل نصراني يدعى يونان، فأوصله إلى مكان القافلة وعاد، وقبل أن تقلع القافلة وصلتهم أخبار أن عصابة لصوص على الطريق تترصد القوافل لتسطوا عليها، وبينما هم يتداورون الأمر بينهم بشأن المسير أو التوقف حتى جاءهم الرجل النصراني و قال لهم: "سمعت أن في طريقكم حرامية جئت لأسيركم، سيروا، فسرنا معه إلى ذلك الموضع" وبعدما وصلوا إلى جبل نزل منه اللصوص ليسطوا على القافلة، غير أن يونان تصدى لهم بأن كل من في القافلة هم في ذمته " فردهم والله جميعهم عنا، وما أكلوا من عندنا رغيف خبز، ومشى معنا يونان حتى أمنا، ثم ودعنا وانصرف"[41].

ISSN 2437-0797
Dépôt Légale 6799-2015
ص08-28

خلق احتكاك الصليبيين بالمسلمين نوعا من المقارنة، خصوصا لدى الطبقة السياسية، حيث ذكر ابن منقذ أنّ فارسا من فرسان أنطاكية أرسله روجر في مهمة إلى القدس، وكتب إلى حاكم شيزر أن يساعده في الوصول إلى منطقة رفنية، إلا أن الفارس قد أعجب بإمارة شيزر إعجابا كبيرا جعله يفشي سر المهمة التي أرسل من أجلها ويبوح بها إلى حاكم شيزر، وقد دار بينهما حوار قوامه الإعجاب من أحد طرفي الحوار، والافتخار من الراوي الذي يقول: " فلما لقيه قال : قد نفذني صاحبي في شغل وسر له، لكنني رأيتك رجلا عاقلا، فأنا أحدثك به، فقال له عمي: من أين عرفت أني عاقل وما عرفتني إلا الساعة؟ قال: لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر، فعرفت أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك"[42].

كماحظيت المرأة أيضا بنصيب من ملاحظات أسامة بن منقذ، ويبدو أن عامل الاختلاف قد شد انتباهه لتدوينها، ففي الفترة التي كان فيها بمصر التقى برجل يدعى ندى الصليحي، كانت عليه آثار جراح في وجهه، فسأله أسامة عن سببها، فأخبره أنه في إحدى الغارات على الحجاج إلى بيت المقدس قتل رجلا صليبيا، فضربته زوجته في وجهه دفاعا عن زوجها[43]، وتحدث عن وفاء نسائهم لبني جلدتهم فقط، من ذلك أن والده في إحدى الغارات غنم سبايا، فقام بإهداء إحداهن إلى صديقه شهاب الدين سالم بن مالك حاكم قلعة جعبر[44]، فتزوجها هذا الأخير وأنجبت ولدا يدعى بدران تولى حكم القلعة بعد وفاة والده، وأصبحت والدته الصليبية الآمرة الناهية، ورغم كل ذلك العز والملك الذي كانت فيه إلا أنها واعدت جماعة وهربت من القلعة إلى منطقة سروج[45]، وتزوجت هناك بإسكافي، وقد علق عليها أسامة بتهكم " وهم لعنهم الله، جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم"[46].

ISSN 2437-0797
Dépôt Légale 6799-2015

كما لفت انتباهه كثيرا الجانب المتعلق بالرجل والمرأة، فملاحظاته كشفت عن تناقض تام بين ذهنية المسلم الذي يغير على محارمه، وبين الصليبي الذي رغم شجاعته وبسالته في القتال، إلا أنه عديم الغيرة على نسائه، فقد ذكر عنهم أن الرجل يمشي مع زوجته فإذا وجدت رجلا يعرفها يأخذها في ناحية ويتكلم معها، فإذا تأخرت عن زوجها يذهب ويتركها تتكلم على راحتها[47]، والأكثر من ذلك أنه ذكر عن أحدهم أنه وجد رجلا في فراشه مع زوجته فلم يفعل له شيئا سوى أن قال له: "وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت"[48]، وذكر أن بالمعرة[49]صديقا له يدعى سالما قد أخبره أن أحد الفرسان الصليبيين دخل ليستحم، وهم لا يحبون أن يستتر الشخص في الحمام فجذب الفارس المئزر عن سالم، فرأى عانته محلوقة، واستحسن ذلك بحكم أنهم لم يكونوا يحلقونها، فطلب منه أن يحلقها له، بل وأحضر زوجته للحمام وطلب منه أن يفعل معها ذلك أيضا " فاستلقت على ظهرها، وقال: اعمل كما عملت لي! فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني! فشكرني ووهبني حق خدمتي!"[50]، وفي حادثة أخرى كان بإحدى حمامات مدينة صور[51]، حيث رأى رجلا أدخل معه ابنته للحمام، فلما اندهش أسامة واستفسر عن ذلك أخبره والدها أن زوجته توفيت ولا يوجد من يغسل لابنته، ليجيبه أسامة بقول لا ندري إذا كان استهزاء أم تقدير لموقف " قلت: جيد ما عملت، هذا لك فيه ثواب"[52].

يعتبر الميدان الطبي شقا مهما في الصراع بين المسلمين والصليبيين، لأنه يحظى بأهمية معتبرة بحكم أن الطب يسعى للمداواة والحفاظ على العنصر البشري وهو الحلقة الأهم في الصراع العسكري والسيطرة على مختلف المناطق[53]، وبناء على هذا الاعتبار رصد أسامة عدة ملاحظات حول الطب لدى الصليبيين، فقد طلب صاحب حصن المنيطرة طبيبا من حاكم

إمارة شيزر لمداواة أحد أصحابه، فأرسل له طبيبا عربيا نصرانيا، فلما شرع في صناعة الدواء له، دخل عليهم طبيب صليبي ورفض وصفة الطبيب العربي وادعى أنه لا يفقه شيئا في الطب، وبدل أن يقدم للمريض دواء قام بقطع رجله التي كان مجروحا منها فمات الفارس من ساعته، أما المرأة فادعى أن في رأسها شيطانا قد عشقها، وقام بجرحها في رأسها ورسم صليبا عليه، فماتت أيضا[54]، وهو ما يشير إلى حجم التخلف الكبير الذي كانوا يعانون منه من النواحي العلمية، وقد لعبت الكنيسة دورا كبيرا في الترويج للنظرة السلبية إلى الطب، فقد كان القساوسة يرون أن المرض هو عقاب إلهي نتيجة الذنوب التي يرتكبها الإنسان، ووصفوا الأطباء أنهم يزيدون المرضى ألما بدل مداواتهم[55]، فقد ذكر أن أحد كبار الفرسان في طبرية[56] قد مرض، فطلب من أحد القساوسة أن يقف بجنبه ليصبره، فما كان منه إلا أن طلب شمعا وسد به أنفه وقتله، وقال له "كان يتعذب، سددت أنفه حتى يموت ويستريح!"[57].

إلا أن هذا التخلف لم يمنع من وجود نماذج شذّت عن القاعدة، وهو ما ذكره عنهم أسامة بن منقذ، وقد كان موضوعيا في ذلك، ولم يكتفي برصدما يشوه صورهم، بل لم يكن هدفه ذلك، وإنما كتب ما رأته عيناه وما سمعه من ثقاته، من ذلك أن أحد الفرسان الصليبيين يدعى برناد، ضربه حصان فأصيبت رجله وتقيحت في أربعة عشر موضعا، وعاني منها كثيرا، حتى جاء طبيب صليبي داوى القروح من الصديد وغسلها بالخل الحامض " فختمت تلك الجراح وبرأ، وقام مثل الشيطان"[58]، وحتى العامة من الصليبيين كانت لها معرفة ببعض طرق المداواة بالعقاقير الطبيعية، حيث ذكر أن أحد الصناع من شيزريدعى أبو الفتح، كان ولده مريضا بقروح في رقبته تدعى بالخنازير، فأخذه معه يوما في شغل له بأنطاكية، ورآه أحد عامة الصليبيين وسأله عن علته،فقدم له وصفة دواء،وكان فعالا فقد استعمله أسامة في مداواة العديد

من المرضى الذين أصيبوا بهذا المرض[59]، وهي صورة من صور التعايش بين المسلمين والصليبيين في غير مواضع الحرب.

لا يخفى أنّ تعصب الصليبيين في العصور الوسطى قد بلغ أشده نتيجة دعاية الكنيسة، وسيطرتها على عقول الأوروبيين، فكان تدينهم ملازما لهم، دون نسيان التعصب ونفسية الصليبي المبنية على الكراهية وإقصاء الآخر، وقد كانت الكنيسة حاضرة في الحروب التي خاضوها، ففي إحدى المعارك نصب أحد البطارقة خيمة جعل منها كنيسة يصلي فيها الجنود[60]، كما أنّ تشبثهم بعقيدتهم بلغ أوجه في تلك الفترة، ويقدم لنا ابن منقذ قرينة على ذلك بأسير يدعى راوول كان في نصيب والده، فأسلم، وزوجه من امرأة مسلمة ورزق منها بطفلين، وبعد مرور خمس سنوات أخذهما رفقة زوجته إلى أفامية وتنصر[61]، أما عقيدتهم فقد رأى فيها أسامة أمرا مضحكا يدل على ضعف عقولهم، فقد جاء أحدهم إلى أتابك دمشق وسأله إذا كان يريد أن يرى الله صغيرا "فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم، والمسيح عليه السلام صغير في حجرها! فقال: هذا الله صغير!"[62].

خاتمة:

يكتسي كتاب الاعتبار قيمة لا غنى عنها لدى الباحث في تاريخ المجتمع الصليبي ببلاد الشام، فأسامة بن منقذ بتواصله واحتكاكه بالصليبيين تمكن أن يرصد لنا ملاحظات في غاية الأهمية عن الفارس الصليبي ومقدراته القتالية، وحتى عن طبائع وذهنية المجتمع، وإذا كان رصده للجوانب العسكرية من باب التقدير والإعجاب بالخصم، فإن رصده للمجتمع كان من زاوية

رصد الاختلافات والمظاهر الشاذة بالنسبة للمسلم، خصوصا ما تعلق منها بالحياة الدينية والحياة الزوجية، وبعض المظاهر ذات الصلة بالعلوم وقيمة النفس بينالإسلام والمسيحية.

الهوامش:

1-محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المغرب والمشرق، دار الغرب الإسلامي،1982 تونس، ص49.

2-بعد عقد البابا أوربان الثاني لمجمع كليرمون فران سنة 488ه/1095م الذي حضرته مختلف الطبقات الإجتماعية من أمراء وعامة ورجال دين، وانقسمت الحملة الصليبية على إثر هذا المجمع إلى قسمين، حملة العامة وحملة الأمراء، بخصوص الأولى كانت في غاية العشوائية والهمجية، ترأسها والتر المفلس والتحق به بعد ذلك بطرس الناسك، وكل الحشود المشاركة فيها لا علاقة لها بالجندية وفنون القتال، فكات حشود جرتها الحماسة الدينية والأوضاع المزرية في أوروبا، بل ارتكبت الأفاعيل من النهب والسلب على مدار طريقهم من أوروبا إلى القسطنطينية، ولاقت نهايتها على يد قلج أرسلان الذي تمكن م سحقهم بمدينة نيقية، أما حملة الأمراء فكانت في غاية التنظيم والإحترافية العسكرية حيث تشكلت من خمسة جيوش وهي جيش جودفري دي بوايون رفقة أخوه بلدوين، وجيش ريموند الرابع كونت تولوز والبروفنسال، وجيش روبرت دوق نورمانديا، وجيش شرفي يمثل ملك فرنسا بقيادة هيو شقيق فيليب الأول، وجيش من ايطاليا بقيادة بوهيموند.راغب السرجاني، قصة الحروب الصليبية، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2009القاهرة، صص66-75.محمد العروسي المطوي، نفسه، صص 47-48.

3- أسامة بن منقذ، الإعتبار، تقديم وتعليق عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي،2003 بيروت، ط2، ص135.

4- كونت الأنجوي ومين، سمي على اسم والده فولك الملقب بريخين، وكان كونت تورين وأنجو، كان يعمل ساقي شراب ببلاط حاكم بواتييه ثم أطلق سراحه وتزوج بأرمبيج ابنة هيلي كونت منطقة مين، ليصبح بذلك كونت أنجو ومين سنة 1110م ، كان قدومه إلى بيت المقدس سنة 1129م وزواجه بالأميرة مليزنت نتيجة نصيحة عدة أمراء ورجال دين لبوهيموند باستقدامه حيث منح له حكم مدينتي صور وعكا، يذكر وليم الصوري أنه تولى الحكم وعمره قد تجاوز الستين، كان يعاني من ضعف شديد للذاكرة. وليم الصوري،

الحروب الصليبية،ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994،ج3، صص65-66، صص89-93.

5- مدينة صغيرة بالقرب من دمشق، تضم قلعة، يحيط بها نهر يسقي ساكنتها، كما لها عدة أرحاء، استعادتها نور الدين زنكي بعدما سيطر عليها الصليبيين.الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان،1985 بيروت، ط2، ص74.

6-أسامة بن منقذ، نفسه، صص135-136.

7-نفسه، ص136.

8- مدينة ضخمة بالجانب الغربي من نهر دجلة، ومنه يسقى ساكنتها، سميت بذلك بحكم أنها وصلت بين نهري الدجلة والفرات، تكثر بها الضياع وتقل بها البساتين، لها سوران يحيطان بها، ولها قلعة عظيمة يحيط بها سور، ولها ربض كبير يضم الأسواق والحمامات والخانات والقيساريات والجوامع، منها واحد بني في العهد الأموي، والثاني حديث البناء بني بطريقة فخمة، وتوجد بالموصل أكثر من ستة مدارس ومارستان على نهر الدجلة. الحميري، المصدر السابق،ص563.

9- حاكم الموصل من 502ه-507ه/1109-1114م، أرسله السلطان محمد السلجوقي بجيش إلى الموصل لإزاحة حاكمها جاولي سقاوو الذي تمرد على الإمارة السلجوقية وسار في أهلها سيرة سيئة، وقد كان مودود أميرا فاضلا سبقته سيرته الحسنة إلى الموصل، وهو ما حذا بساكنتها إلى استغلال صلاة الجمعة وصعدوا إلى الأسوار وقتلوا حراس إحدى الأبراج، وفتحوا أبوابه ونادوا باسم السلطان السلجوقي محمد، وتمكن على إثرها مودود من السيطرة على الموصل سنة 502ه/1109م بعد محاصرته لها، استهل مسيرة الجهاد ضد الصليبيين بحملة ضد الرها سنة 505ه/1112م وحاصرها مدة ثم انسحب، وكرر عليها الغارات في السنة الموالية، إلا أنه تفاجأ بجيش جوسلين ما اضطره إلى الإنسحاب إلى منطقة سروج، وهزم الصليبيين رفقة أمراء آخرين في طبرية سنة 507ه/1114م ودخل دمشق للإستراحة ومواصلة الجهاد في الربيع، إلا أن أحد جنود فرقة الباطنية طعنه بعد الصلاة وكان صائما ليلفظ أنفاسه بعد لحظات في بيت طغتكين حاكم دمشق ورفض الإفطار وقال " لا لقيت الله إلا صائما" وذكر ابن الأثير أن ملك بيت المقدس كتب إلى حاكم دمشق رسالة قال له فيها " إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها" ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية،2003، بيروت، ط4، صص124-125،ج9، صص149-150.

10- ابن أخت بوهيموند أمير أنطاكية، انضم لجودفري دي بوايون حاكم بيت المقدس الذي أقطع له منطقة الجليل، وبعدما أسر خاله بوهيموند على يد غازي ابن الدانشمند استدعي لتولي حكم أنطاكية سنة 494ه/1101م وشن عدة حملات عسكرية سيطر من خلالها على قليقية وأذنة والمصيصة وميناء اللاذقية، و لم يسعى لجمع الفدية لتخليص خاله من الأسر لأنه سيعود على رأس الإمارة. لكن لم يتواصل حكمه لأن خاله تمكن من جمع فدية بمساعدة أمير الرها وأطلق سراحه سنة 496ه/1103م ابن الأثير، نفسه، ج9، ص29. راغب السرجاني، المرجع السابق، صص188-195. حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية،1989، الإسكندرية، صص128-129.

11- أسامة بن منقذ، نفسه، صص140-141.

12- الراشد بالله ابن المسترشد بالله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، الحاكم رقم 30 في سلسلة خلفاء الدولة العباسية، حكم لمدة سنة واحدة من 529-530ه/1135-1136م، كان فصيحا أديبا شاعرا. إبراهيم محمد حسنين، تاريخ الدولة العباسية، دار التعليم الجامعي، 2013،الإسكندرية،صص252-253.

13-بكسر القاف وفتح النون وتشديد السين،من مدن الشام، فتحت على يد أبو عبيدة بن الجراح سنة 17ه/638م، تقع على نهر قويق، وهو نهر يسير من حلب ويمر عليها، تفصلها عن حلب اثنا عشر ميلا، لها حصن منيع وأسواق.الحميري، نفسه، صص473-474. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، د.س، بيروت، ج4، ص403.

14-الجوشن هو ما عرض من الصدر وسمي الدرع الحديدي الذي يوضع على الصدر باسمه.الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، 2003، بيروت، ط1،ج1، ص243.

15-أسامة بن منقذ، نفسه، صص53-54.

16-نفسه، ص113.

17-قاسم عبده، صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد 27، 1981،ص17.

18-مدينة حصينة من مدن الشام، وتنتمي لكور حمص، يختلف في نطقها حيث يسميها البعض فامية. ياقوت الحموي، نفسه، ج1،ص227.

19- وهو نهر عظيم بالقرب من حمص وحماة، ينبع من بحيرة قدس ويصب بأنطاكية، يعرف عند أهل الشام بالميماس وعند أهل أنطاكية بالأرند، سمي بالعاصي لأن معظم الأنهار تتوجه نحو الجنوب إلا هو يتوجه نحو الشمال، عليه عدة جسور تشكل ممرات هامة للقوافل والجيوش، وعليه عدة نواعير تزود ساكنتها بالمياه. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، صص67-68. الحميري، نفسه، ص405.

20- ذكر أسماء ثلاثة منهم وهم يحيى بن صافي الأعسر، سهل بن أبي غانم الكردي، وحارثة النميري.أسامة بن منقذ، نفسه،ص139.

21-نفسه، نفسه، ص139.

22- نفسه، صص142-143.

23- أسامة بن منقذ، نفسه، صص124-125.

24- نفسه، ص72.

25-اختلف في نطقها بين جبريل وجبرين، وهي بلدة بين القدس وغزة، تفصلها عن القدس مرحلتان، كانت تضم قلعة حصينة هدمها صلاح الدين الأيوبي بعد تحريرة لبيت المقدس، يقال أنه بينها وبين عسقلان وادي النملة التي خاطبت النبي سليمان بن داود عليهما السلام. ياقوت الحموي، نفسه، ج1، ص519.

26- مدينة ساحلية من مدن فلسطين، تقع بين غزة وبيت جبريل، تلقب بعروس الشام، فتحت صلحا على يد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة 23ه/644م، تفصلها عن الرملة ستة فراسخ، وعن غزة أربعة فراسخ، سقطت بيد الصليبيين سنة 548ه/1153م واسترجعها صلاح الدين الأيوبي سنة 583ه/1187م. الحميري، المصدر السابق، ص420. ياقوت الحموي، نفسه، ج4،ص122.

27-نفسه، صص71-72.

28- أسامة بن منقذ، نفسه، ص103.

29-نفسه، ص104.

30- نفسه، ص105.

31- نفسه، ص105.

32-نفسه، صص134-135.

33- مدينة ساحلية واسعة من مدن الشام، اتخذها الصليبيون ميناء عسكري لنزول قوافلهم القادة من أوروبا بعد سقوطها على يديهم في العشر الأول من القرن السابع للهجرة، فضلا عن استخدامه لدواعي تجارية، بها

الكثير من الضياع، تراجعت حضاريا بعد سيطرة الصليبيين عليها وامتلأت شوارعها بالقذارة، وحولوا مساجدها إلى كنائس.الحميري، نفسه،ص410.

34- نفسه، صص95-96.

35- قاعدة بلاد الشام، لها أربعة أبواب، باب الجابية، وباب توما، وباب الغوطة، وباب الفراديس أو باب كيسان، ولها نهر يحيط بالمدينة ويصب في الغوطة، إضافة إلى نهر برزا، ونهر ثورا، ونهر يزيد، ونهر القناة، ولها سور يحيط بها وتحته قنوات تدخل منها الأنهار للمدينة، ولها عدة أسواق وجوامع وعشرين مدرسة ومارستان، وأهلها يجيدون مختلف الصنائع. الحميري، نفسه، صص237-240.

36- نفسه، ص96.

37-نفسه، ص137.

38- نفسه، ص138.

39- مدينة من مدن الشام، تفصلها عن قنسرين اثنا عشر ميلا، يقال أنها سميت بحلب نسبة لرجل من العمالقة، بينما يقول رأي آخر أن إبراهيم عليه السلام كان يأوي إلى ربوة فيحلب غنمه ويتصدق بحليبها فسميت حلب، لها سور أبيض يحيط بها، ونهر يسقي ساكنة المدينة، وقربها قلعة حصينة يسكنها حاكمها،أسواقها كثيرة وكلها مسقفة بالخشب، ولها جامع حسن وقربه مدرسة، إضافة إلى أربعة مدارس متنشرة في أزقة المدينة، ومارستان، لها سبعة أبواب وهم باب الجنان، وباب أربعين، باب أنطاكية، باب قنسرين، باب اليهود، باب الفراديس، الباب الشرقي، يسكنها المسلمون إضافة إلى أقليات يهودية ونصارى نساطرة.الحميري، نفسه،صص196-197.

40- مدينة من مدن الشام،يحيط بها البحر من ثلاث جهات، لها سور صخر عظيم يحيط بها، تكثر بها الضياع والرساتيق، تتمتع بمقدرات فلاحية هامة، حيث يكثر بها الزيتون والكروم وقصب السكر ومختلف أنواع الفواكه، إضافة إلى مكانتها التجارية الهامة، حيث تكثر بها السلع ويقصدها التجار من مختلف المناطق. الحميري، نفسه، ص390.

41-نفسه، صص154-155.

42- أسامة بن منقذ، نفسه،صص164-165.

43- نفسه، ص216.

44- قلعة تقع على نهر الفرات، بين بالس والرقة، وقريبة من صفين، كانت تسمى قديما دوسر، سيطر عليها نور الدين زنكي وأزاح منها حاكمها شهاب الدين مالك بعد أسره، وهي القلعة التي قتل عندها عماد الدين زنكي وهو محاصر لها. ياقوت الحموي، نفسه، ج2، ص142.

45- بلدة قرب ملطية، تفصلها ستة فراسخ عن حصن كيفا، وسبعة فراسخ عن السميساط، وخمسة فراسخ عن زبطرة، تضم العديد من العيون والجداول المائية، وهو ما منحها قيمة إقتصادية معتبرة، فقد كثرت بها البساتين والكروم،ومختلف أنواع الفواكه. الحميري، نفسه،صص315-316.

46-نفسه، صص217-218.

47- أسامة بن منقذ، نفسه،ص224.

48- نقسه، ص225.

49- مدينة بالشام، تفصلها عن حلب خمسة أيام، وهي مدينة كبيرة تكثر بها المباني والأسواق، لها سبعة أبواب، باب حلب، والباب الكبير، وباب شيث، وباب الجنان، وباب حمص، معظم أراضيها يطغى عليها الرمل، شبكتها المائية ضعيفة حيث تعتمد بكثرة على مياه الأمطار، يكثر بها الزيتون والكروم والتين والفستق والجوز. الحميري، نفسه،ص555.

50- وقد علق على هذه الحادثة قائلا "فانظروا إلى هذا الإختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة!" نفسه، صص225-226.

51- مدينة ساحلية من مدن الشام، تتمتع بحصانة كبيرة ويضرب بها المثل في ذلك،يحيط بها السور من ثلاثة جوانب، لها بابان، ولها ميناء تقصده السفن للتجارة، وتكثر بها الآبار والعيون، وتشتهر بإنتاج الزجاج والفخار والثياب، تفصلها عن دمشق خمسة أيام.الحميري، نفسه،ص369.

52- نفسه، ص226.

53- محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، دار الشروق،1999، عمان، ص115.

54- أسامة بن منقذ، نفسه،صص220-221.

55- محمد مؤنس عوض، نفسه، ص109.

56- مدينة من مدن الشام، كانت تسمى طيباريوس وحرف العرب نطقها إلى طبرية، لها بابان، من الناحية مساحة عرضها لا يتجاوز الميلين، أما من ناحية الطول فهي تمتد على مساحة طويلة، تقع في أصل جبل، ولها

نهرها المسمى بنهر الأردن، وبها حمامات معدنية لمداواة المرضى، تشتهر بصناعة الحصر السامانية.الحميري، نفسه، صص385-386.

57-أسامة بن منقذ، نفسه، ص227.

58- نفسه،ص221.

59- نفسه،صص221-222.

60-نفسه، ص163.

61- نفس، صص218-219.

62- نفسه، ص224.